

المحاضرة العاشرة : الاتجاه المادي الماركسي في الفن

ان الآراء الجمالية للمدرسة الماركسية (ماركس وأنجلو) مستوحاة من نظريتهما السياسية الداعية الى تحرير الطبقة العاملة من العبودية التي تمارسها عليها الطبقة البرجوازية لهذا نجد كل من ماركس وأنجلو يقفان ضد السيطرة البرجوازية على الفرد داخل المجتمع كما يستخدمان الفن كوسيلة للتحرر من تضيق هذه الطبقة الحاكمة على العمال و على هذا الأساس طرح السؤال الآتي : ما هو موقف الفن من الحالة التي يعيشها العمال في النظام الرأسمالي ؟ وهل يعتبر الفن وسيلة تحرر وبناء لمجتمع جديد؟

١ - الرأسمالية وقتل الفن

" يعتقد ماركس و أنجلو أن الرأسمالية الصناعية ، التي تصل الى أعلى نضجها ، هي من بين أشكال المجتمعات كافة ، أشدها أعداء الفن " ^١

ان الماركسية تؤكد على أنه رغم نضج الرأسمالية وقوتها الاقتصادية الا انها تعتبر العدو الأول و الأشد على الابداع الفني ولقد عرف هذا العداء " ازدياد الفنون الجميلة تخصصا ، وضيق أفق وفي ابتعادها المستمر عن الحياة " ^٢

ان الماركسية من خلال حكم سيطرتها على الفن جعلته اكثر تخصصا ، وعملت على التضيق على عملية الابداع الفني لتجعل من الفن لا يهتم بالجانب الاجتماعي للإنسان وكل ما تعلق بتحسين ظروفه الاجتماعية ، وجعلت من الفنان حبيس أفكار هذه الافكار والإبداعات الفنية أصبحت نظرية لا تعكس واقع الانسان الذي يعاني من الطبقة من جهة ومن قهر أرباب العمل البرجوازيون .

^١ ف . ن . كليندر : الماركسية والفن الحديث ، عيون الدار البيضاء ، ط٢ ، ١٩٨٩ ، ص ٦٨ .
^٢ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

ولهذا نجد الماركسية بزعامة ماركس وأنجلز تعلن الثورة على من قيد الفنان و أجبره على البقاء داخل عباءة الاضطهاد من خلال الدعوة الى ثورة فنية تعكس امال وطموحات المجتمعات و الافراد

٢ - علاقة الفن بالمجتمع الاشتراكي :

ان النظرة الجديدة لماركس وانجلز لدروس الفن في المجتمع لا تخرج عن الاشتراكية والمجتمع الاشتراكي فالفن عندهما " جزء من عملية التاريخ الشاملة التي تقوم على أساس مادي ، هو تطور القوى المنتجة والعلاقات المنتجة كوجهين لا ينفصمان عن بعضهما لأسلوب الانتاج"³

فالفن وفق الماركسية عملية تاريخية يهدف الى بناء أو انشاء نظرية جمالية ديالكتيكية مادية و عملية مرتبطة و منسجمة ، تكون جدلية أي في صراع دائم بين قوى الانتاج و علاقات الانتاج وهي مادية لأنها تجعل من الانتاج مجالاً لها ، حيث " ترى المادية التاريخية في القاعدة الاقتصادية المبدأ المحدد ، القانون المحدد للتطور التاريخي للأدب والفن ، وغيرهما من ظواهر البناء الفرقي"⁴

فالفن بهذا المعنى عملية فوقية أو بناء فوقي يجعل من القاعدة الاقتصادية أحد الركائز الأساسية للتطور التاريخي لكل الأعمال الفنية ، فالتطور الفني يقوم على التطور الاقتصادي.

" ان الفن صيغة من صيغ الوعي الاجتماعي"⁵

هذا الوعي هو الذي يحارب القوى البرجوازية التي أصبحت تعادي فروع الانتاج الفكري للمعرفة كالرسم والشعر .⁶

³ مجموعة من الأساتذة السوفيات : علم الجمال الماركسي اللينيني ، ج ١ ، ترجمة فؤاد مرعي ، دط ، دت ، ص ١٩٨

⁴ المرجع نفسه ، ص ١٩٤

⁵ مجموعة من الأساتذة السوفيات ، المصدر السابق ، ص : ١٩٣

⁶ المرجع نفسه ، ص : ١٩٧

ان الوعي دعامة أساسية تجعل من الفنان قادر على تخطي عراقيل البرجوازية فهو قابل للتطور بتطور المجتمع في جانبه الاقتصادي وهذا التطور لن يحدث الا بحدوث ثورة اشتراكية لهذا يرى كل من ماركس و أنجلز " أن انقاذ الفن مستحيل الا عن طريق التغيير الثوري للعلاقات الاجتماعية . ان الثورة الاجتماعية وحدها القادرة على امكانات غير محددة لتقدم الحضارة الفنية الانسانية وتطورها الى مالا نهاية"⁷

ان الفعل الثوري ضروري لإخراج الفن من وضعيته الكلاسيكية و جعله يقاوم كل أشكال الرق والعبودية و تحقيق تقدم على مستوى الماديات و الذهنيات

ان كارل ماكس يربط بين ازدهار الفن في المجتمع الاشتراكي بالتغيير الثوري بحيث " تكون الاشتراكية هي التي تؤمن بحرية الفرد الحقيقية لأنها تنهي مرة واحدة الى الأبد كل استغلال يمارسه الانسان ضد الانسان"⁸

فالثورة الاشتراكية هدفها الأول هو تحرير الانسان الفنان من قبضة الرأسمالية البرجوازية لأن الحرية هي أساس كل عمل فني والحرية تقضي لا مجال على استغلال الانسان لأخيه الانسان.

لكن ماركس يرى أن جعل الفن مرتبط بالظروف الاجتماعية غير كاف فعلى الفنان أن يتخطى الظروف الاجتماعية ليهتم بالإنسان الفرد وفي بناء ذات واعية قادرة على بناء مجتمع جديد قوامه الحرية و تكافؤ الفرص " ان الفن ينشأ في ظروف تاريخية أي في مستوى معين من نمو القوى المنتجة . وهكذا فهو بناء فوقي ، ولكنه يمد جذوره في الحياة التطبيقية وفي قدرة الانسان على الطبيعة وفي مستوى القوى المنتجة"⁹

⁷ المرجع نفسه ، ص : ١٩٨

⁸ المرجع نفسه ، ص : ١٩٩

⁹ علي أبو ملحم : المرجع السابق ، ص : ٧٦

اذن فنظرية ماركس في الفن " تنطلق من المبدأ القائل أن الانسان الاجتماعي يخلق ذاته بنشاطه و عمله ، وهو يتطور ويتغير أثناء تطويره للطبيعة"¹⁰

٣ - الفن تصوير للواقع ووسيلة للتحرر

ترى الماركسية " أن الابداع الفني هو أحد أساليب تصوير الواقع"¹¹

فقد جعل كل من ماركس و أنجلز " مركز بحوثهما في علم الجمال مسألة واقعية كطريقة فنية تؤمن تماما عمق وسعة ما يصوره الفن في العالم الواقعي"¹²

ان الفن وفقا للطرح الماركسي هو تصوير للواقع الخارجي الذي يعيشه لدى نجد أبحاث كل من ماركس و أنجلز جعلت الفن يتسم بخاصية الواقعية وهي طريقة فنية يستطيع الفنان بواسطتها تغيير واقعه المعيشي

و اذا ما اعتبرنا أن الفن يمثل ويصور الواقع لكن في الحقيقة لا يهتم بالوقائع السطحية الآتية التي يتلقاها الفنان عن طريق حواسه حينها بعملية تصويرية للعالم بطريقة غير صادقة¹³

ان الفن داخل البناء الاشتراكي لا يهتم بالعادة السطحية التي يدرسها و يعيشها عن طريق حواسه لأن هذه الحوادث السطحية لا تعطينا الحقيقة وغالبا ما تكون نتائجها غير صحيحة " ان الفن لا يكون صادقا الا عندما ينقل نقلا حيا ما هو جوهري و قانوني في الموضوع و الظاهرة و يعبر عن نواحيها الرئيسية"¹⁴

فصدق الفنان وفنه مرتبط بما هو جوهري و قانوني في الظواهر و ما يدور حول الظاهرة من كل الجوانب ، فالفن الماركسي يهتم بكل الحوادث التي تحدث داخل المجتمع كما تهتم بالإنسان ومحاولة ترقيته و تحريره من العبودية كما يهتم الفن

¹⁰ المرجع نفسه ، ص : ٧٥

¹¹ مجموعة من الأساتذة السوفييات ، علم الجمال الماركسي اللينيني ، ص ٢٠٠

¹²

¹³ - مجموعة من الأساتذة السوفييات : علم الجمال الماركسي اللينيني ص ٢٠٠

¹⁴ - المرجع نفسه ص ٢٠١

أيضا بالتأسيس لمجتمع اشتراكي قائم على الحرية تزول فيه كل مظاهر العنف والسيطرة و الهيمنة من طرف رجال المال أو الطبقة التي تملك وسائل الانتاج.

فالفن على حد تعبير وتأکید أنجلز وماركس يؤكد على واقع ارتباطه دائما وفي مختلف الأحوال بالنضال الطبقي وهو نفسه جزء من هذا النضال¹⁵

" الشعور الجمالي هو أحد أشكال العلاقة الحسية العملية مع الواقع وهو شكل تطور تاريخيا"¹⁶

ان الجمال عند ماركس هو وسيلة للتغيير والتأثير في المجتمع حيث نجد أن معظم الأعمال الفنية هي تعبيراً عن عدم الرضى بالواقع الذي يعيشه الفرد داخل المجتمع البرجوازي الرأسمالي فالفنان " كائنا واعيا مفكرا يشارك في عمل الطبقة الاجتماعية طوال المرحلة التاريخية التي تبدأ من المرحلة البدائية أو المجتمع الخالي من الطبقات الى المرحلة التي تبدأ تزول فيها الطبقات " ¹⁷

ان الفنان بوعيه يعد شريكا أساسيا في نظرية العمل الاجتماعي حتى زوال الطبقات داخل المجتمع " ان الأثر الفني يركز أو يكشف في موضوع معين " استثنائي وفريد ن جهد الناس العظيم ، وجهد الجماهير البشرية "¹⁸

ان الفن من وجهة نظر الماركسية يخلف أثرا كبيرا على الفرد والمجتمع أثر استثنائي وهو عمل كل الأفراد داخل المجتمع الاشتراكي وبذلك " يحاول الفنان أن يتخطى الحدود والعقبات التي يناهض بها مجتمع ما الفعالية الشخصية . " وحين تكون هذه الحدود وهذه العقبات موجودة ومناهضة لحركة النمو هذه "¹⁹

¹⁵ - المرجع نفسه ص ٢٠٢

¹⁶ - المرجع نفسه ص ٢٠٦

¹⁷ - علي أبو ملح: المرجع السابق ص ٧٥ - ٧٦

¹⁸ - هانري لوفاجر : في علم الجمال : ت. محمد غيتاني ، دار المعجم العربي بيروت ، دط ، دت ، ص ٢٤

¹⁹ - المرجع نفسه ص ٤٧

"ان الفنان الذي يقوم بهذا الدور بحسب ماركس هو فنان مبدع وخلاق و عليه الفنان ، المبدع الخلاق في الفن هو من حيث الأساس كائن حر "20

وعليه فان شرط الابداع والخلق في الفن بحسب الماركسية مربوط بفعل التحرر الذي هو أساس أية عملية ابداعية وبفضل الحرية يصبح الفن أسمى درجات الفرح والسعادة التي يهبها الله للإنسان

٤ - موقف الفلاسفة الماركسيون في نهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠ من الفن

أ - كاب لافارغ (١٨٤٢-١٩١١) / اشتراكي فرنسي تلميذ ماركس " انتقد لافارغ بشدة الفن البرجوازي لخداعه وفراغه لأنه اهتم بالمثل والمبادئ من أجل الخداع السياسي والاقتصادي

ب - فرانز ميرنغ / (١٨٤٦م ، ١٩١٩م) :

حارب الكانطية الجديدة كما وضح الصلة بين الفن و الأخلاق "21

ج - غريغو ريلبخانوف (١٨٥٦ ، ١٩٠٣م) مفكر روسي

عرف أن الفنان المعاصر لا يستطيع ان يستوحي الفكرة الصحيحة اذا أراد الدفاع عن مصالح البرجوازية في نضالها ضد البوليتاريا " 22

كما ربط المسائل الجمالية بأفكار الاشتراكية العلمية ن ومعالجتها من واقع المادية التاريخية، كما يؤكد على علم الجمال الديمقراطي و جعل الفن وسيلة لخدمة الشعوب .

20 - المرجع نفسه ص ٤٧ - ٤٨

21 مجموعة من الأساتذة السوفيات ، علم الجمال الماركسي اللينيني ، ص ٢٠٩

22 المرجع نفسه ص ٢١١